توظيف الطبري المعرفة بعادات العرب لبيان مشكل القرآن الكريم*

د. عبد الرحيم خير الله عمر الشريف**

سلم البحث في ٥/١٠/١٤٣٦هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٠/١١/١٤٣٦هـ

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث توظيف المفسر الطبري معرفته بعادات العرب قبل الإسلام بهدف تفسير الآيات المشكِلة في القرآن الكريم، وقد قسم البحث إلى قسمين: نظري وتطبيقي، غطى المبحث الأول القسمَ النظريَّ من البحث، واشتمل على ثلاثة مطالب: الأول: تعريف بحياة الطبري وبمكانته العلمية، والثاني: بيان المقصود بعادات العرب وأهمية اعتمادها أصلاً في التفسير، والثالث: التعريف بمشكل القرآن وتعليل سبب وجوده في القرآن الكريم، ويليه المبحث الثاني الذي ذكر فيه الباحث أمثلة على توظيف الطبري لمعرفته بعادات العرب بغرض بيان مشكِل القرآن وتحليلها ونقدها، وخلص البحث إلى أن الطبري كان شديد العناية بتوظيف معرفته بعادات العرب المعاصرين لتنزيل القرآن الكريم لبيان مشكل القرآن الكريم، وكان يحتج بها في الترجيح بين الآراء المختلفة في التفسير.

الكلمات المفتاحية: الطبري، مشكل القرآن، عادة العرب.

AlTabari's employment of the acquaintance with Arabs' habits to interpret the problem of the Holy Qur'an

Abstract:

This article studies AlTabari's employment of the acquaintance with the pre-Islam Arabs' habits to interpret the problem of the Holy Qur'an. The article is divided into two parts: theoretical and applied, the first part covered the theoretical section and included a three themes: first: AlTabari's life and his scientific stature, the second included explanation of the meaning of the Arabs's habits and its importance as a primary source of interpretation, and the third included a presentation to the study of the problem of the Holy Qur'an and the rationalization for its occurrence in The Holy Quran.The second part included examples of AlTabari's employment to his acquaintance with the Arabs and their habits and customs for the

* نشر بدعم من عمادة البحث العلمي في جامعة الزرقاء، بالمملكة الأردنية الهاشمية.

** الأستاذ المشارك في التفسير وعلوم القرآن وعميد كلية الشريعة جامعة الزرقاء، بالمملكة الأردنية الهاشمية.

purpose of interpreting and analysing the problems of the Holy Qur'an and their critique. The study concluded that AlTabari was meticulously concerned with the employment of his acquaintance with the habits of the contemporary Arabs who witnessed the revelation of the Holy Qur'an to interpret its problems. In addition, he observed this method when comparing between the different interpretations and considered it as a primary criterion to favour one interpretation among other ones.

Key words: AlTabari's, the acquaintance with pre-Islam Arabs' habits, the problem of the Holy Qur'an

المقدمة:

أولاً: توطئة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد. فإن الإنسان يميل إلى تقليد من يراه من أئمة الفن الذي يعمل فيه، ومن رحمة الله بطلبة العلم أن يسر لهم أئمة هدىً يستنيرون بنور هديهم ويقتفون أثرهم؛ ليسلكوا معهم وبهم سبل السلام، وليجانبوا طرائق التيه والضلال، ويُعد الإمام محمد بن جرير الطبري شيخ المفسرين بلا منازع، فهو الإمام الذي "يُحكَمُ بقوله"[١] وتفسيره رائد التفاسير وعمدتها؛ كيف لا وهو فارس التأويل المحمود الجامع بين الرواية والدراية، وبخاصة فيما يختص بالمباحث اللغوية صرفاً وتركيباً ودلالة، فمن سواه يستحق لقب إمام المفسرين وقدوة المؤولين؟

لذا فإن من رام الحق في الكشف عن المراد من كلام الله تعالى في كتابه الجليل الاقتداء بشيخ المفسرين وتتبع الأصول التي سلكها والاستنارة بنورها والبناء عليها، ومن تلك الأصول التي اعتمدها الطبري وظهرت جلية في سفره العظيم: توظيف المعرفة بعادات العرب لبيان مشكل القرآن الكريم، وقد جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على جهده في ذلك.

ثانياً: منهج الدراسة:

استخدم الباحث المنهج التاريخي للتعريف بالطبري وبمكانة تفسيره، ثم المنهج الوصفي للتعريفات والقضايا ذات العلاقة بالبحث، ثم المنهج الاستقرائي لتتبع أبرز الأمثلة التي تسلط الضوء على توظيف الطبري لعادات العرب بهدف بيان مشكل القرآن، ثم منهج التحليل النقدي لما ورد في تلك الأمثلة.

وقد رتب الباحث الأمثلة وفق ترتيب القرآن الكريم، مع مراعاة وضع خط تحت

مَوضع الشاهد من الآية الكريمة.

ثالثاً: أهمية الدراسة وأهدافها:

تنبع أهمية الدراسة من مكانة الطبري والرضا العام بمنهجه في أصول التفسير وقواعده التي من أبرزها: ضرورة الاحتجاج بعادات العرب المعاصرين للتنزيل بهدف بيان مشكل القرآن، تلك المكانة التي أهلته ليكون أصلاً ومثالاً يحتذى به في التفسير الصحيح لآيات القرآن الكريم.

وتهدف هذه الدراسة إلى:

١. تسليط الضوء على أبرز معالم حياة الطبري ومكانة تفسيره.

٢. توضيح المقصود بمشكل القرآن الكريم وتعليل سبب وجوده.

٣. بيان مدى عناية الطبري بتوظيف معرفته بعادات العرب، لبيان مشكل القرآن الكريم.

خامساً: خطة الدراسة:

تشتمل الدراسة على قسمين: نظري وتطبيقي، غطى المبحث الأول القسمَ النظريَّ للدراسة، واشتمل على ثلاثة مطالب: الأول: تعريف بالطبري وبمكانته العلمية، والثاني: بيان المقصود بعادات العرب وأهمية اعتمادها أصلاً في التفسير، والثالث: التعريف بمشكل القرآن وتعليل سبب وجوده في القرآن الكريم، ويليه المبحث الثاني الذي ذكر فيه الباحث أمثلة على توظيف الطبري لمعرفته بعادات العرب بغرض بيان مشكل القرآن وتحليلها ونقدها، ثم ختمت الدراسة ببيان نتائجها وتوصياتها، وفق التفصيل الآتي:

المبحث الأول

الإطار النظري

المطلب الأول: تعريف بالطبري وبمكانته العلمية

أولاً: اسمه ونسبه:

اتفقت كتب السير والتراجم على أن اسمه وكنيته كما يلي: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري،[٢] يُنسب إلى طبرستان، وهي ولاية كبيرة تقع على شاطئ بحر قزوين في بلاد فارس.[٣]

ثانياً: نشأته:

ولد الطبري سنة (٢٢٥هـ) ونشأ في رعاية والده الذي حرص على تعليمه القرآن الكريم، فحفظه وهو في عمر سبع سنين، وأمَّ الناس وهو في الثامنة، وكتب الحديث عن مشايخ بلدته وما حولها وهو في التاسعة، وبعد أن بلغ الثانية عشرة من عمره رحل لطلب العلم وكان يكتب عن مشايخ علماء الثغور في العراق والشام ومصر [٤]، وكان والده ينفق عليه في رحلته فكان طول حياته ينفذ إليه بالشيء بعد الشيء إلى البلدان، وقال الطبري يوماً: "أبطأت عني نفقة والدي، واضطررت إلى أن فتقت كمَّي القميص فبعتهما". [٥]

ثالثاً: مكانته العلمية:

هو رأس المفسرين على الإطلاق، أحد الأئمة، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها[٦]، كيف لا يكون كذلك وقد جمع "من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه؛ لجمعه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد من هذه الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له، وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءات، وعلم التاريخ من الرسل والخلفاء والملوك، واختلاف الفقهاء مع الرواية.. وكان يحفظ من الشعر للجاهلية والإسلام ما لا يجهله إلا جاهل به". [٧]

وقد شغله طلب العلم عن الزواج، قال مسلمة بن قاسم عنه: كان حصوراً، لا يقرف النساء، ورحل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، سنة ست وثلاثين، فلم يزل طالبا للعلم مولعاً به إلى أن مات[٨]، هذه المكانة العلمية للطبري جعلت تفسيره أصح التفاسير المتداولة بين أيدي الناس، الخالية من البدعة والنقل عن المتهمين،[٩] حتى اتفقوا على أن تفسيره لم يصنف أحد مثله. [١٠]

رابعاً: وفاته:

توفي رحمه الله في آخر شوال من سنة (٣١٠هـ)، ولمكانته وفضله استمر الناس يُصلون على قبره شهوراً ليلاً ونهاراً، حيث دفن في داره بمنطقة رحبة يعقوب

ببغداد.(١١)

المطلب الثاني
التعريف بعادات العرب زمن التنزيل وبيان أهمية المعرفة بها في التفسير

باللغة تستقيم الحياة وتتيسر المعيشة؛ فغرض اللغة الرئيس أن الناس "بها يتوصلون إلى إفهام بعضهم بعضاً ما في ضمائرهم، والإبانة عن مقاصدهم وأغراضهم"(١٢)

إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، لذا ينبغي لكل من أراد أن يفهم المراد بمعاني ألفاظ نص من النصوص أن يعيش بيئته التي فيها وضع فيها وأعراف الناس حول معنى ما يتداولونه من ألفاظ وتراكيب، وقد راعى الطبري بيئة القوم الذين تناولتهم الآيات الكريمة وتحدثت في شأنهم، بهدف إزالة المشكل، انظر كيف وجَّه معنى كلمة (ساحر) في قوله تعالى على لسان فرعون وملئه: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

قال الطبري: "إن قال لنا قائل: وما وجه قيلهم: "يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك؟"، وكيف سمّوه ساحراً وهم يسألونه أن يدعو لهم ربه ليكشف عنهم العذاب؟ قيل: إن الساحر كان عندهم معناه: العالم، ولم يكن السحر عندهم ذماً، وإنما دعوه بهذا الاسم؛ لأن معناه عندهم كان: يا أيها العالم".(١٣) فهم بعد أن عاينوا العذاب(١٤) قالوا لموسى عليه السلام: "يا أيها العالم الكامل الحاذق، وإنما قالوا هذا توقيراً وتعظيماً له؛ لأن السحر عندهم كان علماً عظيماً، وصفة ممدوحة".(١٥)

ولما كان للعرب الذين عاصروا تنزيل القرآن الكريم عاداتهم وأساليبهم التي استعملوها للتفنن في الخطاب، كان لزاماً علينا معرفة تلك العادات والأساليب لفهم ما غمض ودق من ألفاظ القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم.

والمقصود في هذا البحث بعادة العرب: ما سار عليه العرب واعتادوه من قول أو فعل أو ترك أو اعتقاد، استناداً إلى عاداتهم وعرفهم وتقاليدهم وأفكارهم ومعتقداتهم وأساليبهم في الخطاب والبيان.(١٦)

وللمعرفة بعادات العرب دور رئيس في فهم دلالات الألفاظ والتراكيب، قال الزركشي: "ومعرفة هذا الفن [أي: العلم بالعربية] للمفسر ضروري، وإلا فلا يحل له الإقدام على كتاب الله تعالى"، قال يحيى بن نضلة المديني: "سمعت مالك بن أنس يقول: لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالاً".[١٧]

المطلب الثالث

التعريف بـالمشكِل وتعليل سبب وجوده في القرآن الكريم

يُعد حل مشكل القرآن العمود الفقري لعمل المفسر، بل إن من لا يعرف غريب القرآن لا يحل له تفسيره،[١٨] وهذا بدهي؛ لأن العلم بالمقصود بالتركيب لا يتم إلا إذا تم العلم بمفرداته.[١٩]، لذا فإن "أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن: العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية: تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المَعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللّبِن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كلّ علم من علوم الشرع فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه".[٢٠]

فما هو المشكل، وما سبب وجوده في القرآن الكريم؟.

المشكِل في اللغة: اسم فاعل للفعل أشكل يُشكِل، وأشكل الأمر عليَّ: التبس واختلط، وأشكلت عليَّ الأخبار وأحلكت بمعنى واحد[٢١]، وأصل التعبير بالإشكال يعود إلى المماثلة في الشكل[٢٢]، وبحث الفخر الرازي أصل اشتقاق كلمة: (مشكل)، قال: "المشكل سمي بذلك؛ لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشابهه، ثم يقال لكل ما غمض –وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة– مشكل"[٢٣]

وعرَّفه الجرجاني اصطلاحاً بأنه: ما لا يُنال المراد منه إلا بتأمل بعد الطلب، وسمي بالمشكل لأنه هو الداخل في أشكاله، أي في أمثاله وأشباهه، مأخوذ من قولهم: أشكل أي صار ذا شكل، كما يقال: أحرم، إذا دخل في الحرم، وصار ذا حرمة، ثم ضرب مثالاً عليه: "قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:١٦]، أنه أشكل في أواني الجنة لاستحالة اتخاذ القارورة[٢٤] من الفضة. والأشكال هي الفضة والزجاج،

فإذا تأملنا علمنا أن تلك الأواني [أي: التي سماها قوارير] لا تكون من الزجاج ولا من الفضة، بل لها حظٌّ منهما؛ إذ القارورة تستعار للصفاء، والفضة للبياض، فكانت الأواني في صفاء القارورة وبياض الفضة.[٢٥]

وكثيراً ما نجد المفسرين يُعبرون عن الاستشكال بالغريب، ذلك لأن الاستشكال سببه إما: "غموض في المعنى، أو لاستعارة بديعة، وذلك يسمى غريباً مثل رجل اغترب عن وطنه، فاختلط بأشكاله من الناس، فصار خفياً بمعنى زائد عن الأول"[٢٦]، لذا تجد ابن عقيلة المكي قد عرف المشكل بأنه: "ما أشكل معناه على السامع، ولم يصل إلى إدراكه إلا بدليل آخر".[٢٧]

والحق أنه يندرج تحت مشكل القرآن كلٌّ مِن: موهم المختلِف والتعارض بين آيات القرآن الكريم،[٢٨] واللفظ الغريب خفي المعنى[٢٩]، وعلى هذا فيكون المقصود بالمشكل في هذه الدراسة: كل إشكال يطرأ على فهم قارئ النص القرآني، فيما يختص بغرابة اللفظ أو خفاء المعنى أو موهم التعارض.

ومن أبرز الاستشكالات التي أزال الطبري غموضها معتمداً على عادات العرب وتقاليدهم وتفانينهم في الكلام ما سيتم بسطه في المبحث التالي.

المبحث الثاني
نماذج من توظيف الطبري المعرفة بعادات العرب لبيان غريب القرآن

تحدث الطبري في مقدمة تفسيره عن الأمور التي ينبغي للمفسر مراعاتها عند الكشف عن المراد من كلام الله تعالى، وعدَّ منها: "معرفةُ المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإنّ ذلك لاَ يجهله أحدٌ منهم. وذلك كسامعٍ منهم لو سمع تاليًا يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، لم يجهلْ أنّ معنى الإفساد: هو ما ينبغي تركهُ مما هو مضرَّة، وأن الإصلاحَ: هو ما ينبغي فِعله مما فِعلهُ منفعةٌ، وإنْ جَهِل المعانيَ التي جعلها الله إفسادًا، والمعانيَ التي جَعلها الله إصلاحاً فالذي يعلمه ذو اللسان –الذي بلسانه نزل القرآنُ– من تأويل

القرآن، هو ما وصفتُ: مِنْ معرفة أعيان المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيآتها التي خص الله بعلمها نبيَّه ﷺ، فلا يُدرَك علمُهُ إلا ببيانِه، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه".(٣٠)

أراد الطبري بهذا المثال أن يُخبر بأن العربي الذي لم يتعرف بعد على الأحكام التفصيلية للإسلام، قادرٌ على المعرفة العامة للمقصود بالإصلاح والإفساد؛ لأن "الله –تعالى ذكره– أنزل هذا الكتاب بلسان قوم، وبلغاتهم، وما يتعارفونه بينهم".(٣١)، وأكده مرة أخرى في مَوضع آخر بقوله: "الله –تعالى ذِكره– خاطب بالقرآنِ العربَ على ما يعرفونه من كلامهم، وجرى به خطابهم بينهم".(٣٢)

ولشدة عنايته بأصل عادة العرب في معرفة المراد من كلام الله تعالى تجده يحاول الجمع بين الأصلين: أصل الاستدلال بمعهود استعمال العرب للكلمة وأصل الاستدلال بالتفسير بالمأثور، انظر كيف جمع الطبري بين عادة العرب وتفانينهم في الخطاب مع الوارد السنة الصحيحة في بداية تفسير سورة الإسراء، لتأييد رأيه بأن الإسراء كان جسداً وروحاً، لا روحاً فقط.

قال: "والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات؛ ولا معنى لقول من قال: أسرى بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلاً على نبوّته، ولا حجة له على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكراً عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل؟.

وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح

عبده، وليس جائزاً لأحد أن يتعدّى ما قال الله إلى غيره. فإن ظنّ ظانّ أن ذلك جائز، إذ كانت العرب تفعل ذلك في كلامها، كما قال قائلهم:

حَسِبْتُ بُغامَ رَاحِلَتِي عنَاقا ومَا هِيَ وَيْبَ غيرِكِ بالعْنَاقِ(٣٣)

يعني: حسبت بغام راحلتي صوت عناق، فحذف الصوت واكتفى منه بالعناق، فإن العرب تفعل ذلك فيما كان مفهوما مراد المتكلم منهم به من الكلام. فأما فيما لا دلالة عليه إلا بظهوره، ولا يوصل إلى معرفة مراد المتكلِّم إلا ببيانه، فإنها لا تحذف ذلك؛ ولا دلالة تدلّ على أن مراد الله من قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ أسرى بروح عبده، بل الأدلة الواضحة، والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يُقال لها البراق؛ ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجسام".(٣٤)

ملخص قول الطبري: نعم، إنَّ مِن عادة العرب وتفانينهم في الخطاب حذف المضاف اكتفاءً منها بالمضاف إليه،(٣٥) لكنها تفعل ذلك إذا كان المحذوف مفهوماً عند السامع باديَ الأمر بلا لبس ولا إشكال، وبذا يزول التعارض المتوهَّم بين السنة وعادة العرب في الخطاب.

مثال آخر: من التفسير بالمأثور: قول الصحابي، وسلك فيه الطبري المنهج ذاته: منهج الجمع، انظر مثلاً مسلكه في الجمع بينهما عند تأويل (التمني) في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٩٤)، أورد قولاً لابن عباس م حلاً لاستشكال كيف تتحدى إنساناً بأن يتمنى في قلبه أمنية ما؟ لأنه قد يكذب عليك ويزعم بأنه قد تمناها.

قال: "وقد روي عن ابن عباس م أنه قال –في تأويله–: "فسلوا الموت". ولا يُعرف "التمني" بمعنى "المسألة" في كلام العرب. ولكن أحسب أن ابن عباس م وجَّهَ معنى "الأمنية"– إذ كانت محبة النفس وشهوتها– إلى معنى الرغبة والمسألة، إذْ كانت المسألة، هي رغبة السائل إلى الله فيما سأله"(٣٦)، وقصد ابن عباس م ما يحمل

معنى المباهلة، فهم قد "تُحدوا بأن يدعوا بالموت على أي الفريقين كان كاذباً"[٣٧] والحامل على تأويل التمني بالسؤال باللسان (المباهلة) هو: لأنَّ مجرد الأمنية القلبية لا يستطيع الناس معرفتها والتأكد من صدقها؛ لأن الطرف الآخر قد يزعم –كاذباً– أنه قد تمناها في قلبه.

وسر التعبير بلفظ التمني هنا: أن لفظ التمني مشترك بين: المعنى القائم بالقلب،[٣٨] وذاك الكلام الذي يصدر من الإنسان ويكون دالاً على ذلك المعنى،[٣٩] كقول القائل بلسانه: ﴿ليتني مِتُّ﴾، ولمَّا علم اليهود أنه أتى بلفظة مشتركة لا يمكن الاعتراض عليها، لم يلتفتوا إليه.[٤٠]

قال الباحث: يمكن الجمع بين القولين بأن عدم تمنيهم ذلك –لا باللسان ولا بالقلب– هو من باب الإعجاز بالغيب، أو لخشيتهم من أن يأخذهم العذاب إن تمنوا ذلك، وفي كلاهما إثبات منهم لنبوته ﷺ باعتراف لسان الحال وإن أنكروها ظاهرياً بلسان المقال!

من المثال السابق يتبين أن منهج الطبري إذا تعارض الاستدلال بالمشهور من عادة العرب وتفانينهم في الكلام مع التفسير بالمأثور، كالسنة وقول الصحابي، فإنه يحاول الجمع بينهما. لكن ماذا إذا تعارض مع رأي مَن هم دونهم كالتابعين؟

تجد الطبري إذ ذاك يميل إلى الترجيح باللغة بدلاً من الجمع، انظر مثلاً عندما بحثَ في أصل اشتقاق كلمة (حور) في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٤٥]، نقل قولاً لمجاهد: "والحُور: اللاتي يحار فيهنّ الطرف بادٍ مُخُّ سوقهنّ من وراء ثيابهنّ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهنّ كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون".[٤١] ثم نقده الطبري بقوله بأنه: "لا معنى له في كلام العرب، لأن الحُور إنما هو جمع حوراء [أي: بيضاء]، كالحمر جمع حمراء، والسود: جمع سوداء، والحوراء إنما هي فعلاء من الحور وهو نقاء البياض".[٤٢]

وميل الطبري إلى الترجيح لا الجمع بين القولين منطقي، لأن الحور العين من الجذر (ح و ر) الذي يدل على البياض، لا من (ح ي ر) الذي يدل على حيرة

الذي لا يعرف طريقاً يسلكه، وليس غرض الدراسة التوسع في مثل هكذا قضايا لغوية، ولكن غرضها الرئيس لفت النظر إلى عناية الطبري بالاستدلال بعادات العرب زمن التنزيل وتفانينهم في الكلام، كما ستبينه الأمثلة الآتية.

المثال الأول: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٩٥).

الاستشكال: هنالك كثير من الجنايات المسببة لدخول النار فعلتها جوارح غير الأيدي.

جواب الطبري: "أما قوله تعالى:﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فإنه يعني به: بما أسلفته أيديهم. وإنما ذلك مثل، على نحو ما تتمثل به العرب في كلامها. فتقول للرجل يؤخذ بجريرة جرها أو جناية جناها فيعاقب عليها: "نالك هذا بما جنت يداك، وبما كسبت يداك، وبما قدمت يداك"، فتضيف ذلك إلى"اليد"، ولعل الجناية التي جناها فاستحق عليها العقوبة، كانت باللسان أو الفرج أو غير ذلك من أعضاء بدنه سوى اليد، وإنما قيل ذلك بإضافته إلى"اليد"؛ لأن عُظْمَ جنايات الناس بأيديهم، فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنايات التي يجنيها الناس إلى ﴿أَيْدِيهِمْ﴾، حتى أضيف كل ما عوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء بدنه، إلى أنها عقوبة على ما جنته يده.

فلذلك قال جل ثناؤه للعرب: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يعني به: ولن يتمنى اليهود الموت بما قدموا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله، في مخالفتهم أمره وطاعته في اتباع محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، ويعلمون أنه نبيٌّ مبعوث. فأضاف جل ثناؤه ما انطوت عليه قلوبهم، وأضمرته أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم –من حسد محمد ﷺ، والبغي عليه، وتكذيبه وجحود رسالته– إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم، لِعِلمِ العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها. إذ كان جل ثناؤه إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها".[٤٣]

إذاً هم لن يتمنوا الموت لعلمهم أنهم في دعواهم كاذبون، وأراد بـ ﴿بما قدمت أيديهم﴾ ما قدموه من الأعمال، وأضافها إلى اليد؛ لأن أكثر جنايات الإنسان تكون

باليد، فأضيفت إلى اليد أعمال الإنسان، وإن لم تكن كل أعماله عن طريق اليد.[٤٤] فالأكثر من كسب العبد الخير والشر إنما هو بيديه.[٤٥]

وذهب أبو حيان إلى أن "ما قدمت أيديهم" محمول على الحقيقة بالكتابة باليد الجارحة، وذلك بتغيير صفة النبي ﷺ في التوراة.[٤٦]

ويرى الباحث أن الجمع بين الرأيين ممكن؛ فيندرج تحريف التوراة مع ما فعلوا من مخازٍ اعتقدوها وفعلوها بأيديهم على الحقيقة، كأخذهم الربا وقد نهوا عنه، أو على المجاز كتكذيبهم بالنبوة، وزعمهم بأن المشركين أهدى من المسلمين سبيلاً، كلها ستجعلهم يكرهون الموت خوفاً من لقاء الله تعالى وحسابه.

المثال الثاني: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (٢٣٣)".

الاستشكال: ما فائدة ذكر: "كاملين" ونحن نعرف أن البلاغة في الإيجاز، ولن يحصل لَبسٌ لو لم يذكر: "كاملين"؟

جواب الطبري: "إن العرب قد تقول: "أقام فلان بمكان كذا حولين، أو يومين، أو شهرين"، وإنما أقام به يوما وبعض آخر، أو شهرا وبعض آخر، أو حولا وبعض آخر، فقيل [في القرآن]: ﴿حولين كاملين﴾ ليعرف سامعو ذلك أن الذي أريد به حولان تامان، لا حول وبعض آخر. وذلك كما قال الله –تعالى ذكره–: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٣]. ومعلوم أن المتعجل إنما يتعجل في يوم ونصف، وكذلك ذلك في اليوم الثالث من أيام التشريق، وأنه ليس منه شيء تامٌّ".[٤٧]

وتبعه السمرقندي بالتعليل ذاته فقال: "لأن بعض الحولين يسمى حولين، كما قال في آية أخرى: ﴿الحج أَشْهُرٌ معلومات﴾ [البقرة: ١٩٧]، وإنما هي شهران وعشرة أيام. فهاهنا لما ذكر الحولين الكاملين، علم أنه أراد الحولين بغير نقصان".[٤٨]

إنه بكلمة (كاملين) يبين "أنهما حولان كاملان، أربعة وعشرون شهراً، من يوم ولِد إلى أن يُفطم".[٤٩]

المثال الثالث: قال تعالى في سورة النساء: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾(٢٥).

الاستشكال: لمَ فرَّق بين تحريم المسافَحة واتخاذ الخدن (الصديق) مع إن كلا الفعلين زنا محرم؟

جـواب الطبـري: المراد بالسفاح هنا: الزنا العلني؛ "لأن الزواني كنّ في الجاهلية، في العرب: المعلنات بالزنا، و[المراد بـ] ﴿المتخذات الأخدان﴾: اللواتي قد حبسن أنفسَهن على الخليل والصديق، للفجور بها سرًّا دون الإعلان بذلك".[٥٠]

وكان بعض أهل الجاهلية فيهم الزواني في العلانية، ولهن رايات منصوبة وبعضهن اتخذن أخداناً –يعني أخلاء– في السر، ولا يفعلن بالعلانية؛ فنهى الله عن نكاح الفريقين جميعاً. وتقدير قوله: تزوجوا محصنات غير معلنات بالزنى ولا في السر؛[٥١] لأن أكثر أهل الجاهلية كانوا يُحرمون على الحرائر ما ظهر من الزنى، ويستحلُّون ما بطن؛[٥٢] لأنه –بزعمهم– لا يعدو كونه صداقة ومودة![٥٣]

المثال الرابع: قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾(٨٩).

الاستشكال: لماذا عبّر عن تحرير العبد من أسر العبودية بتحرير رقبته دون سائر أعضائه؟

جواب الطبري: "قيل: "تحرير رقبة"، والمحرَّر ذو الرقبة؛ لأن العربَ كان من شأنها إذا أسرت أسيرًا أن تجمع يديه إلى عنقه بقِدٍ أو حبل أو غير ذلك، وإذا أطلقته من الأسر أطلقت يديه وحلَّتهما مما كانتا به مشدودتين إلى الرقبة. فجرى الكلام عند إطلاقهم الأسير، بالخبر عن فك يديه عن رقبته، وهم يريدون الخبرَ عن إطلاقه من أسره.. أضيف "التحرير" إلى "الرقبة"، وإن لم يكن هناك غُلٌّ في رقبته ولا شدُّ يَدٍ إليها، وكان المراد بالتحرير نفسَ العبد، بما وصفنا، من جَرّاء استعمال الناس ذلك بينهم لمعرفتهم بمعناه ".[٥٤]

المثـال الخـامس: قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ يَكنـزونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا

يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣٤).

الاستشكال: الآية حرمت الكنز، وقد يقول قائل: أنا لا أخبئ الذهب والفضة تحت التراب، بل هي ظاهرة في نقودي التي أحملها وفي حلي زوجتي.

جواب الطبري: "الكنز في كلام العرب: كل شيء مجموع بعضُه على بعضٍ، في بطن الأرض كان أو على ظهرها.. وكذلك تقول العرب للبدن المجتمع: "مكتنز"، لانضمام بعضه إلى بعض.

وإذا كان ذلك معنى "الكنز"، عندهم، وكان قوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾، معناه: والذين يجمعون الذهب والفضة بعضَها إلى بعض ولا ينفقونها في سبيل الله.. كان معلومًا أن خصوص ذلك إنما أدرِك، لِوقْف الرسول عليه، وذلك كما بيَّنا مِن أنه المال الذي لم يؤدَّ حق الله منه مِن الزكاة دون غيره".(٥٥)

بهذا يكون الطبري في لفته الانتباه إلى تعبير العرب عن الاكتناز، قد حل الاستشكال الذي قد يخطر ببال من يقرأ الآية الكريمة ويحملها –مخطئاً– على النهي عن دفن الذهب والفضة تحت التراب، وفي هذا يقول ابن عمر: "ما أدِّيَ زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤدَّ زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً"(٥٦)، وفي هذا تصحيح لمفهوم الكنز، كما قال سعيد بن المسيب: سأل عمر ﷺ رجلاً عن أرض باعها فقال: أحسِن موضع هذا المال، فقال: أين أضعه؟، قال: احفر تحت فراش امرأتك، فقال: يا أمير المؤمنين أليس بكنز؟، قال: ما أدّيَ زكاته فليس بكنز.(٥٧)

وبذا يصبح تعريف الكنز المحرَّم في الآية: "كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤدَّ زكاته، سواء كان مدفوناً أو غير مدفون"(٥٨)، وهذا مما تؤيده اللغة؛ لأن: "اكتنز: اجتمع وامتلأ. والكنيز: التمر في قواصر للشتاء.. وناقة وجارية كناز –ككتاب–: كثيرة اللحم".(٥٩)

المثال السادس: قال تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُمْتَرِينَ﴾(٩٤).

الاستشكال: هل كان رسول الله ﷺ في شكٍّ من خبَرِ الله أنه حقٌّ يقين؟.

جواب الطبري: "هذا مثل قول الرجل منهم لابنه: "إن كنت ابني فبرَّني"، وهو لا يشك في ابنه أنه ابنه، وذلك من كلامهم [أي العرب] صحيحٌ مستفيضٌ فيهم".(٦٠)

إن الخطاب في هذه الآية الكريمة للرسول ﷺ والمقصود أمته، من باب التعريض بالكناية، وهو مما تعرفه العرب في أساليب خطابها لاستدراج الخصم.(٦١)

قال الرازي: "الخطاب مع النبي ﷺ في الظاهر، والمراد غيره كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِيْنَ وَالمُنَافِقِين﴾ [الأحزاب: ١] وكقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] وكقوله: ﴿يَا عِيْسَى ابنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] ومن الأمثلة المشهورة: إياك أعني واسمعي يا جارة.(٦٢)

والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه:

الأول: قوله تعالى في آخر السورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِيْ شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤]؛ فبيَّن أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.

الثاني: أن الرسول ﷺ لو كان شاكًّاً في نبوة نفسه، لكان شك غيره في نبوته أولى، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية.

والثالث: أن بتقدير أن يكون شاكاً في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار؟

فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ إلا أن المراد هو الأمة "يا رب لا أشكُّ ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب، بل يكفيني ما أنزلته عليَّ من الدلائل الظاهرة". ونظيره قوله تعالى للملائكة: ﴿أَهَؤُلاَء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن﴾ [سبأ: ٤١] وكما قال لعيسى عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوْنِيْ وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. والمقصود منه أن يصرِّح عيسى عليه السلام

بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا ".[٦٣]

ومثله إذا كان عندك أبناء وتخاطب أفضلهم أمام الجميع، وتتوعده إن أخطأ بعقاب ما، فأنت لا تعنيه هو بالضرورة. فإن كان سيدنا محمد ﷺ –وهو حبيب الله تعالى– إذا فعل (كذا) لا تغنيه محبة الله تعالى شيئاً فكيف نحن؟ وهذا مثل الحديث الشريف: "وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا".[٦٤]

المثال السابع: قال تعالى في سورة هود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(١٠٧).

الاستشكال: الخلود يعني الأبد، فكيف يُعلقه على دوام مخلوقٍ سيفنى كالسماوات والأرض؟

جواب الطبري: "العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، بمعنى أنه دائم أبدًا، وكذلك يقولون: "هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار". و"ما سمر ابنا سَمِير"،[٦٥] و"ما لألأت العُفْرُ بأذنابها"[٦٦] يعنون بذلك كله "أبدا". فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم فقال: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾، والمعنى في ذلك: خالدين فيها أبدًا".[٦٧]

وفصل الفراء بيان ذلك فقال: "إن العرب إذا استثنت شيئاً كبيراً مع مثله، أو مع ما هو أكبر منه، كان مَعْنى (إلا) ومعنى (الواو) سواء، فمن ذلك قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيها ما دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ﴾، سِوَى ما يشاء من زيادة الخلود، فيجعل (إلاَّ) مكان (سِوَى) فيصلح. وكأنَّه قال: خالدين فيها مقدار ما كانت السَّموات وكانت الأرض سوى ما زادهم من الخلود والأبد. ومثله في الكلام أن تقول: لي عَليكَ ألف إلاَّ الألفين اللذين من قِبَل فلان؛ أفلا ترى أنه في المعنى: لي عليك سوى الألفين؟".[٦٨]

خلاصة القول: إن العرب تعرف أن هذا الاستثناء غير مقصود؛ لأنه قد استخدم من العبارات الدالة على التأبيد مما تعهده العرب في فصيح كلامها فالعرب "إذا أرادت أن تخبر عن تأبيد شيءٍ تقول: لا أفعل كذا وكذا مدى الدهر، وما ناح الحمام..".[٦٩]

المثـال الثـامن: قـال تعـالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩].

الاستشكال: ما وجه المِنَّة عليهم أنْ يُبشَّرهم بأنهم سيعصرون؟.

رفض الطبري جواب من فسَّر العصر بـ(حلب الأنعام) دلالةً على الخصب[٧٠] ثم وصف ذاك الرأي بأنه: "قولٌ لا معنى له؛ لأنه خلاف المعروف من كلام العرب"[٧١]، وبناء على هذا الأصل فإن المقصود بالعصر هو: "يعصرون العنب خمراً، والزيتون زيتاً، والسمسم دُهناً.. لكثرة النعم والخير"[٧٢]، ولم يجد الباحث أحداً من العرب قد عبَّر عن حلب الأنعام بالعصر.

إن سر التعبير هنا هو الدلالة على كثرة الثمار وانتشارها في ذلك العام، مما يترتب عليه رخصها، وعامة الناس لا يعصرون الغالي النادر من الثمار، بل المنتشر الرخيص.

المثال التاسع: قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(٤٣).

الاستشكال: كيف تكون الأفئدة (الموجودة) هواءً (معدومةً)؟

جواب الطبري: وصفَ الله تعالى أفئدتهم بأنها هواء؛ لأنها "خالية ليس فيها شيء من الخير، ولا تعقل شيئا، وذلك أن العرب تسمي كلّ أجوف خاو: هواء ".[٧٣]

فالأفئدة الهواء هي أفئدة" مُنْخَرِقَة لا تَعي شيئاً، وكلُّ فارغ فهو هَواء".[٧٤] وقلب الجبان هواء لأنه خالٍ من الجرأة،[٧٥] أو لأن فؤاده طار من الخوف.[٧٦]، قال حسان بن ثابت ﷺ:

أَلا أَبلغ أبا سُفْيان عني فأنت مُجوَّفٌ نَخِبٌ هَواءٌ[٧٧]

المثال العاشر: قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(٦٢).

الاستشكال: هل من النعيم حصر الرزق في هذين الوقتين فقط؟.

ذكر الطبري في معرض جوابه عن ذاك الاستشكال أقوالاً للعلماء في كونه جرى على عرف العرب وعاداتهم في الخطاب وتفننهم فيه، منهم: "قال يحيى [بن أبي كثير]: كانت العرب في زمانهم من وجد منهم عشاء وغداء، فذاك الناعم في أنفسهم..

وقال قتادة: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء عجب له.. وقال مجاهد: ليس بكرةٌ ولا عشيٌّ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا"[٧٨]، وفيه إشارة إلى اختلاف الأكل في كل يوم زماناً وصفةً:

من حيث الزمان: يكون الرزق بكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم، وعشياً بعد فراغهم من لذاتهم؛ وبهذا يتقلبون في الملذات من حال إلى حال.

من حيث الصفة: يكون رزق البكرة وهيئته مختلفاً عن صفة رزق العشي وهيئته، وهذا لا يعرفه إلا ملوك العرب في الدنيا.[٧٩]

ذاك التنوع في نعيم الجنة مقصودٌ به ترغيب كل قوم مخاطبين بما يحبونه في الدنيا؛ فلذلك ذكرَ في آيات أخرى أن من نعيم أهل الجنة أساور من الذهب والفضة ولبس الحرير[٨٠] التي كانت للعجم، كما ذكر من نعيمهم في آيات أخرى الأرائك[٨١]

المثال الحادي عشر: قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾(١٧).

الاستشكال: كل مَن في الجنة لا يموتون، فلماذا خص هؤلاء؟

جواب الطبري: "عنَى به أنهم مقرّطون.[٨٢] وقيل: عنى به أنهم دائم شبابهم، لا يتغيرون عن تلك السنّ.

وذكِر عن العرب أنها تقول للرجل إذا كبر وثبتَ سواد شعره: إنه لمخلَّد، كذلك إذا كبر وثبت أضراسه وأسنانه قيل: إنه لمخلد، يراد به أنه ثابت الحال، وهذا تصحيح لما قال قتادة من أن معناه: لا يموتون، لأنهم إذا ثبتوا على حال واحدة فلم يتغيروا بهرم ولا شيب ولا موت، فهم مخلَّدون".[٨٣]

والفكرة هنا أن العربي يكون لديه صبي يخدمه وأهله (وصيف)، ثم يروعه أن يكبر فيتغيِّر وتقلَّ خدمته المباشرة لأهله –غيرةً منه أن يدخل عليهن– فضلاً عن أن يهرم وتثقل همته، فجاء بلفظ (مخلدون) لينفي ذلك كله، لذا قال الكلبي: لا يهرمون ولا يكبرون ولا ينقصون ولا يتغيرون، وليس كخدم الدنيا يتغيرون من حال إلى حال.[٨٤]

والصواب أن المقصود بـ(مخلدون): أنهم ثابتون على مرحلة (الوِلدانية) لا

يكبرون ولا يتغيرون، وليس لأنهم مقرَّطون؛ لأنه الأليق بتنعم أهل الجنة، والأنسب لحالهم والأكثر سروراً لهم،[٨٥] ولأنه يوافق عادة القرآن واصطلاحه لكلمة (مخلدون)، وهو مما لا يخالف ما تعرفه العرب في عاداتها، ولأن نصوص القرآن الكريم ذكرت أن الذين ينعمون بالحلي هم أهل الجنة،[٨٦] ولا يوجد نص صريح على تحلية غلمانهم.

الخاتمة:

إن من يتأمل صنيع الإمام الطبري في بيان المراد من كلام الله تعالى يجده قد اتخذ أصلاً عاماً لمنهجه، وهو الأخذ بالمعاني الظاهرة الأولى، جاعلاً منها أساساً مكيناً ينطلق منه إلى توجيه تأويل النص القرآني الحكيم، حتى إن القارئ ليسلم له باللوازم العقلية التي تنهض بها دلالات ذلك التأويل بلا كثير عناء.

إنه يُعلِّم طلبة العلم ودارسي التفسير التمسُّكَ بأصلٍ جليٍّ؛ لأنه أولى الحجج، وهو دليل بذاته، فلا يعدل عن الأصل ويتجاوز لأجل فرع لا يمكنه أن يغلب الأصل.

ومن أبرز استمدادات الطبري لهذا الأصل هو تتبعه لعادات العرب المعاصرين للتنزيل وتفانينهم في الخطاب، ومن ثم بناء تفسيره عليها، فخرج تفسيره في أبهى حلة تفسيرية عرفها الناس، وكتب القبول لتفسيره في أنحاء المعمورة.

وأوصي في نهاية البحث بدراسة نقدية موسعة لدراسة ترجيحات الطبري المستندة على عادات العرب المعاصرين للقرآن الكريم، والحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث:

---

١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ١٦٣/٢.

٢) انظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ١٦٢/٢ وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٢٦٧/١٤

٣) معجم البلدان، ياقوت الحموي ١٥/٤.

٤) انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٤٩/١٨ – ٥٦.

٥) تاريخ الإسلام، الذهبي ١٦٠/٧

٦) انظر: طبقات المفسرين، السيوطي، ص٣٤(٩٢).

٧) معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٥٩/١٨.

٨) لسان الميزان، ابن حجر ٢٩/٧.

٩) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٨٥/١٣.

[10]) قاله النووي في تهذيب الأسماء واللغات ١/٧٨ .
١١) البداية والنهاية، ابن كثير ١٤/٨٥٠ ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي ١٨/٤٠.
١٢) الفصول في الأصول، الجصاص ١/١١٦
١٣) تفسير الطبري ٢١/٦١٥.
١٤) مثل: ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].
١٥) تفسير البغوي ٧/٢١٦
١٦) أصل الاستدلال بعادة العرب لمعرفة معاني القرآن الكريم وأهمية الالتزام به للوقاية من الخطأ في التفسير، عبدالرحيم الشريف، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، عدد ٩٤،(سنة ٢٨)، شهر ٢٠١٣/٩م، ص٢٧.
١٧) البرهان، الزركشي ١/٢٩٢.
[18]) انظر: البرهان، الزركشي ١/٢٩٣.
[19]) انظر: المصدر السابق ١/١٩١. والإتقان للسيوطي ٢/٥.
٢٠) المفردات، الراغب، ص٥٥.
٢١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/٣٥٧(شكل).
٢٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/٢٠٤ (شكل).
[23]) تفسير الرازي ٧/١٣٨. ويبدو أنه نقله عن ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن، ص٦٨. حيث قال: " سمي مشكلا: لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره، فأشبهه وشاكله ".
٢٤) يقصد بالقارورة: الزجاج الشفاف. قال تعالى على لسان سيدنا سليمان عليه السلام: " إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ " [النمل: ٤٤]، من قوارير: من زجاج. انظر: تفسير ابن كثير ٦/١٩٤.
[25]) التعريفات، الجرجاني، ص٢١٥(باب الميم).
[26]) كشف الأسرار، عبدالعزيز البخاري ١/٥٢.
[27]) الزيادة والإحسان، ابن عقيلة ٥/١٣٤.
[28]) انظر: النوع الخامس والثلاثين في البرهان للزركشي ٢/١٧٦ وموهم التعارض مع السنة في المصدر ذاته ٢/١٩٣، والنوع الثامن والأربعين في الإتقان للسيوطي ٢/٧٢٤
٢٩) انظر: النوع السادس والثلاثين في البرهان للزركشي ٢/٢٠٠.
[30]) تفسير الطبري ١/٧٥
[31]) تفسير الطبري ١١/٣٤٩. إجابة عن استشكال قد يتبادر إلى الذهن عند تلاوة قوله تعالى: " وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ " [الأنعام: ٣٨]، هو: هل يطير الطائر إلا بجناحيه؟
٣٢) تفسير الطبري ١٨/٢٨٨.
٣٣) قال شاكر في تعليقه عليه: البيت للشاعر: ذو الخرق الطهوي. (البغام): صوت الناقة، (العناق): صغيرة المعز، (الوَيب): الويل. وموضع الشاهد هنا: أن العرب قد تحذف المضاف

وتقيم المضاف إليه مقامه، كما في البيت، إذ إنه يريد: حسبت بغام راحلتي صوت عناق، انظر تعليق شاكر في حاشية (٣) من تفسير الطبري ١٠٣/٣ وحاشية (١) منه ٣٥١/١٧.

٣٤) تفسير الطبري ٣٥٠/١٧.

٣٥) مثل حذف المضاف في قوله تعالى: "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى" [البقرة: ١٨٩] على تقدير: " ولكن البرَّ بِرُّ مَنِ اتقى ". وكقوله تعالى: " وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ " [الإسراء: ٦٤]. أي: " بفرسان خيلك وبرجالك ".

٣٦) تفسير الطبري ٣٦٧/٢.

٣٧) انظر تفاسير الجصاص ٩٨/١ وابن عطية ١٨٠/١

٣٨) كمعنى الأمنية في قوله تعالى في سورة النجم: " أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى(٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى(٢٥) ".

٣٩) كمعناها في قوله تعالى: " وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ " [البقرة: ٧٨]. أي: القراءة باللسان دون تدبر. انظر تفاسير: الطبري ٢٦٢/٢، والقرطبي ٥/٢. ولسان العرب، ابن منظور ٢٩٢/١٥(مني). وللاستزادة انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢٣٠/٥ – ٢٣٣(منا).

٤٠) انظر: تفسير الرازي ٦٠٦/٣

٤١) انظر: تفسير مجاهد، تحقيق: د. محمد أبو النيل، ص٥٩٨.

٤٢) تفسير الطبري ٥٢/٢٢.

٤٣) تفسير الطبري ٣٦٨/٢

٤٤) تفسير البغوي ١٤٣/١

٤٥) انظر: تفاسير أبي السعود ١٣٢/١ والخازن ٦١/١ والثعالبي ٢٨١/١

٤٦) تفسير أبي حيان ٤٧١/١

٤٧) تفسير الطبري ٣٠/٥

٤٨) تفسير السمرقندي ١٥٣/١

٤٩) انظر تفاسير: الثعلبي ١٨٠/٢ والبغوي ٣١٢/١ وابن عطية ٣١٣/١

٥٠) تفسير الطبري ٣٧/٢

٥١) تفسير السمرقندي ٢٩٣/١

٥٢) انظر تفاسير: الماوردي ٤٧٢/١ والبغوي ٥٩٩/١. وانظر تفسير وسبب نزول قوله تعالى: " وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " [الأنعام: ١٥١].

٥٣) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١٤١/٩.

٥٤) تفسير الطبري ٥٥٣/١٠.

٥٥) تفسير الطبري ٢٧٢/١٤

٥٦) الدر المنثور للسيوطي ١٧٧/٣
[٥٧]) تفسير الثعلبي ٥٠/٥
[٥٨]) تفسير الماوردي ٣٦٧/٢
[٥٩]) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٦٧٣(الكاف)
٦٠) تفسير الطبري ٢٠٠/١٥
٦١) انظر: الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي ٤٦٣/٥.
٦٢) هذا المثل لسهل بن مالك الفزاري، وأصله قصة وقعت مع أخت حارثة الطائي . انظر: مجمع الأمثال، الميداني ٤٩/١.
[٦٣]) تفسير الرازي ٣٤٦/٨.
[٦٤]) متفق عليه، رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار(٣٤٧٥) ومسلم في الحدود باب قطع السارق الشريف(١٦٨٨) كلاهما عن أم المؤمنين عائشة ل مطولاً، واللفظ لمسلم.
٦٥) ابنا سمير: الليل والنهار. انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢٨٣/٤(سمر).
٦٦) أي: حركت الظباء بذيلها. انظر: حياة الحيوان الكبرى، الدميري ٣٠٨/٢ (الفور).
٦٧) تفسير الطبري ٤٧٨/١٥
٦٨) تفسير النيسابوري ٣٢٨/٤
٦٩) تفسير ابن عطية ٢٠٧/٣
[٧٠]) هذا القول منسوب لابن عباس م، ذكره الإمام زيد بن علي في تفسير غريب القرآن، ص٢٢٤.
٧١) تفسير الطبري ٣٠٥/٧.
[٧٢]) تفسير الثعلبي ٢٢١/٥.
[٧٣]) تفسير الطبري ٢٨/١٧
[٧٤]) المخصص، ابن سيده ٤٣٣/٤. وانظر: المقصور والممدود، ابن ولاد، ص١٣٠،(باب الهاء).
[٧٥]) تاج العروس، الزبيدي ٣٢٦/٤٠(هوي).
[٧٦]) البارع في اللغة، القالي، ص١٦٨.
[٧٧]) مجاز القرآن، أبو عبيدة ٣٤٤/١ والمقصود بالرجل المجوَّف: الجبان الذي لا قلب له. انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥٣/٤(جاف). وكذلك الرجل النخِبُ: الجبان الذي لا فؤاد له. انظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٤١٥/٣ (النون والخاء).
[٧٨]) تفسير الطبري ٢٢٠/١٨
[٧٩]) انظر تفسير القرطبي ١٢١/١١
[٨٠]) انظر سور: الكهف: ٣١، الدخان: ٥٣، الحج: ٢٣، وفاطر: ٣٣، والزخرف: ٧١، والإنسان: ١٢ و٢١،
[٨١]) انظر سور: الكهف: ٣١، يس: ٥٦، الإنسان: ١٣، المطففين: ٢٣ و٣٥.

[82]) أي المحلون بالقرُط على آذانهم. انظر: الماتريدي والماوردي والبغوي (ونقل عن سعيد بن جبير، يقال: " خلّد جاريته: حلاها بالخلد وهو القِرط ").

[83]) تفسير الطبري ٩٨/٢٣

٨٤) تفسير الثعلبي ٢٠٣/٩

[85]) تفسير الرازي ٣٩٣/٢٩

[86]) انظر: الكهف: ٣١، والحج: ٢٣، وفاطر: ٣٣، والإنسان: ٢١.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم

٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٣. أصل الاستدلال بعادة العرب لمعرفة معاني القرآن الكريم وأهمية الالتزام به للوقاية من الخطأ في التفسير، عبد الرحيم الشريف، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، عدد ٩٤،(سنة ٢٨، شهر ٢٠١٣/٩م.

٤. البارع في اللغة، القالي، تحقيق: هشام الطعان، مكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٧٥م.

٥. البداية والنهاية، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت، ط٧، ١٩٨٨م.

٦. البرهان في علوم القرآن، برهان الدين الزركشي، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٧. تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٨. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد دار الغرب الإسلامي بيروت ط١، ٢٠٠٢م.

٩. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

١٠. تفسير ابن كثير/ تفسير القرآن العظيم، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: حسان الجبالي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

١١. تفسير أبي السعود/إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٩٩٤م.

١٢. تفسير أبي حيان/البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٣. تفسير البغوي/معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٤. تفسير ابن عطية/المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب بن عطية، دار الكتب العلمية، ط١،

بيروت، ١٩٩٣م.
١٥.تفسير الجصاص/أحكام القرآن، أحمد بن علي الجصاص الحنفي، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
١٦. تفسير الرازي/التفسير الكبير الشهير بمفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
١٧.تفسير السمرقندي/بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
١٨.جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٩.سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٢٠.طبقات المفسرين، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
٢١.الفصول في الأصول، الجصاص ط:٢ وزارة الاوقاف، الكويت
٢٢.القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٢٣.لسان العرب، محمد بن مكرم الشهير بابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٤.لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٢٥.مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم الحراني الشهير بابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، الرياض، ١٩٨٥م.
٢٦.معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
٢٧.معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
٢٨.المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، (د/ت،ط).
٢٩.المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، ط٢، ١٩٩٣م.